دراسة آية المخلفين الثلاثة من سورة التوبة.

إعداد:

الدكتورة مها محمد رومي العنزي.

معلم الدراسات الإسلامية.

وزارة الأوقاف _دولة الكويت

من ٧١١ إلى ٧٤٦

دراسة آية المخلفين الثلاثة من سورة التوبة.

مها محمد العنزي
قسم الدراسات الإسلامية, وزارة الأوقاف , دولة الكويت
البريد الإلكتروني : mh.alanazi@gmail.com

الملخص:
تحاول هذه الدراسة الإجابة عن السؤال الرئيس الآتي: (ما الدلالة اللغوية والنحوية والصرفية والبلاغية التي تحملها آية المخلفين الثلاثة؟)؛ ولذلك هدَفَت هذه الرسالة إلى بيان الدلالة النحوية، والدلالة الصرفية والدلالة البلاغية للآية، وبيان معنى الآية في سياق القرآني.
اقتضت طبيعة هذه الدراسة أن تأتي في ثلاثة مباحث ولكل مبحث مطالبه، اشتمَل المبحث الأول على الدلالة اللغوية للآية، وفيه مطلبان، كما تناولت في المبحث الثاني الدلالة النحوية والصرفية والبلاغية للآية، وفيه مطلبان مطالب، وتحدثت في المبحث الثالث عن معنى الآية في السياق القرآني الكريم، وفيه مطلبان:
وأخيرًا: ختمت هذه الدراسة بأهَمِّ النتائج التي توصلت إليها؛ ومنها: أن التعبير القرآني أتى بأدق الألفاظ للوفاء بالمعنى وإتمام الصورة في ذهن القارئ، فلو نزعت منه لفظة لن تجد لفظة أحسن منها، فورد لفظ التواب بصيغة المبالغة ليرسم في نفس السامع أن الله عز وجل مبالغ بالتوبة، واحتوى الخطاب على التقديم والتأخير، ليتصور للقارئ الاختصاص والحصر، فجاءت آي القرآن الكريم مرتبطة بعضها ببعض كالكلمة الواحدة.

الكلمات المفتاحية: المخالفين الثلاثة ، سورة التوبة ، دراسة ، دلالات ،صرفية ، بلاغية.

The Study Of The Verse Of The Three Successors From Surat Al-Touba.

Maha Mohammed Al-Anzi
Deartment Of Islamic Studies, Ministry of Endowments,State of Kuwait
Email:mh.alanazi@gmail.com

Abstract:
This study attempts to answer the following main question: (What is the linguistic, grammatical, morphological and rhetorical significance of the verse of the three who were left behind); thus, this research aims to explain the grammatical, morphological and rhetorical significance of the verse, and to clarify the meaning of the verse in the context of the Qur'an.
The nature of this research required that it should processed in three topics, and each topic has its own subjects. The first topic included the linguistic significance of the verse, and it contains two subjects. The second topic also deals with the grammatical, morphological and rhetorical significance of the verse, and it contains two subjects. In the third topic, I addressed the meaning of the verse in the Holy Qur'an context, and it contains two subjects.
Finally, this study concluded with the most important results it reached, including: that the Quranic expression came in the most accurate terms to fulfill the meaning and complete the image in the mind of the reader, if you remove a word from it, you will not find another better than it. The word (repentance) is mentioned in the form of exaggeration to draw in the mind of the listener that Allah Almighty exaggerated the repentance. The speech contains forward and delay, to enable the reader to visualize the jurisdiction and limitation. So the verses of the Noble Qur'an came together as one word.

Keywords: The Three Violators, Surat al-Touba, Study, Semantics, Dismissive, Rhetorical.

المقدمة:

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

إنَّ الآذان إذا استمعت لهذا القرآن جزَمَت بإعجازه، وإن العيون إذا نظرت فيه رأت عجائبه، وإنَّ القرآن جاء بأسراره ليحرِّرَ النفس من غبش الشبهات، ويخلِّصَها من ظُلم الخطيئة، ويجردها من رُكام الجاهلية، ويحررها من القيود الدفينة، وهو مع هذه المعاني الرفيعة جاء بأبدع نَظْم وأعلى أسلوب، وكان لسورة التوبة شأن خاص في القرآن الكريم؛ فهي سورة لها قصة وردت في صحيح البخاري[١]، ونزلت هذه السورة في العهد المدني، في أواخر السنة التاسعة للهجرة، وهي من أواخر ما نزل من القرآن الكريم، كما روى البخاري عن البراء بن عازب قال " أن آخر سورة نزلت سورة البراءة"[٢]، وعدد آياتها مئة وثلاثون آية[٣]، كما تفردت هذه السورة عن غيرها من سور القرآن بترك البسملة، واستهلت بإعلان براءة الله ورسوله من المشركين، فبدأت السورة بعنصر التشويق والإثارة ليقرع السمع وينتبه السامع لكلام الله، ويتدبر المعاني البديعة المتضمنة للخطاب.

---

[١] انظر: البخاري، محمد بن إسماعيل(١٤٢٢هـ)، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الطبعة الأولى، دار طوق النجاة، باب حديث كعب بن مالك، حديث رقم ٤٤١٨، (ج٦/ص٣).

[٢] البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، باب حج أبي بكر بالناس في سنة تسع، حديث رقم ٤٣٦٤، (ج٥/ص١٦٧).

[٣] الداني، عثمان بن سعيد(١٤١٤هـ- ١٩٩٤م)، البيان في عدّ آي القرآن، تحقيق: غانم قدوري الحمد، الطبعة الأولى، مركز المخطوطات والتراث – الكويت، (ص١٦٠).

فوجدت الباحثة أن طبيعة هذه الدراسة تقتضي أن تأتي في ثلاثة مباحث، ولكل مبحث مطالبه على النحو التالي:

المبحث الأول: الدلالة اللغوية في الآية.

المطلب الأول: معاني مفردات الآية.

المطلب الثاني: ألفاظ تشترك مع لفظ (الضيق) في المفهوم.

المبحث الثاني: الدلالة الصرفية والنحوية والبلاغية في الآية.

المطلب الأول: الدلالة الصرفية والنحوية.

المطلب الثاني: الدلالة البلاغية.

المبحث الثالث: الآية في السياق القرآني.

المطلب الأول: علاقة الآية بما قبلها وما بعدها.

المطلب الثاني: التفسير التحليلي للآية.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج.

التمهيد:

تعددت أسماء سورة التوبة التي كانت لها إشارة على ما اشتملت عليه السورة من المحاور ومعاني وقضايا عرضتها السورة، ومن أسماء هذه السورة:

التوبة سميت سورة التوبة لأن فيها بشارة التوبة على المؤمنين من المهاجرين والأنصار وعلى الثلاثة الذين خلفوا، قال تعالى:{ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ *وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[سورة التوبة:١١٧-١١٨].

وتسمى سورة براءة لأنها افتتحت بإعلان براءة الله ورسوله من أهل الشرك، كما قال تعالى:{ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[سورة التوبة:١].

وتسمى الفاضحة لأنها فضحت المنافقين، فقد أخرج سعيد بن جبير سألت ابن عباس رضي الله عنه عن سورة البراءة" فقال تلك الفاضحة، ما زال ينزل ومنهم حتى خفنا ألا تدع أحدًا"[(١)].

وتسمى المبعثرة لما كشفت من أسرار الناس، المثيرة لأنها أثارت أسرارهم، والحافرة لأنها تحفر عنهم، كما تسمى بالمخزية لأنها أخزت المنافقين[(٢)].

[(١)] البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، حديث رقم ٤٨٨٢، (ج٦/ص١٤٧).

[(٢)] انظر: الداني، عثمان بن سعيد، البيان في عدّ آي القرآن، (ص١٦٠).

لعل أسماء السورة كشفت لنا جانبا مهما من المواضيع التي تحدثت عنها السورة، فأسماء السور لها علاقة بشيء مذكور في السورة، وفيما يلي محاور سورة التوبة.

محاور سورة التوبة.

فقد تناولت السورة براءة الله ورسوله من المشركين، وإيذانهم بالحرب، كما وضعت القانون الأساسي للتعامل مع المشركين، الهدنة بين المسلمين والمشركين كما قال تعالى:{ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ}[التوبة:٢]، وتأمين الحربي كما قال تعالى:{ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ}[سورة التوبة:٦].

وتحدثت السورة عن غزوة حنين وغزوة تبوك والمخلفين، كما بينت السورة المنافقين المتخفين بين صفوف المسلمين، فبينت أفاعيلهم في المجتمع المسلم، ووصفت أحوالهم، وأفكارهم، ففضحتهم وكشفت أسرارهم ومخازيهم.

المتأمل لسورة التوبة يجد أن سورة التوبة تضمنت موضوعان رئيسيان الأول علاقة المسلمين بالمشركين، والثاني كشف غطاء المنافقين.

فقد جاءت هذه الآية قال تعالى:{وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[التوبة:١١٨]، في ظل هذه السورة التي تضمنت وضع قواعد لنظام اجتماعي الإسلامي متكامل، وتنظيم العلاقات الداخلية والخارجية للمجتمع الإسلامي[١].

المبحث الأول: الدلالة اللغوية في الآية.

---

[١]انظر: قطب، سيد قطب إبراهيم (١٤١٢ هـ)، في ظلال القرآن، الطبعة السابعة عشر، الشروق – بيروت، (ج٣/ص١٧١٤).

للكشف عن جوهر وكنه الألفاظ في الآية يلزم علينا الرجوع إلى المعنى اللغوي والاصطلاحي، وفيما يلي سنشرع في بيان معاني مفردات الآية، والألفاظ المقاربة للفظ الضيق.

المطلب الأول: معاني مفردات الآية.

أ- خلفوا: استخدم العرب من باب الخاء واللام والفاء (ل خ ف، خ ل ف) فاللخاف هي الحجارة التي استخدمت للكتابة عليها في زمن النبي صلى الله عليه وسلم[١].

أما خلف فالعرب استخدمت هذا اللفظ لعدة معاني ممكن إرجاعها إلى ثلاث أصول:

الأول: أن يجيء شيء بعد شيء يقوم مقامه.

الخلف بمعنى قرن بعد قرن، بالتحريك في الخير، وبالتسكين في الشر، فيقال خَلَفُ صدق، وخَلْفُ سوء، ومنه الخلافة لأن الثاني يجيء بعد الأول قائما مقامه، والخلف ما جاء من بعد، ومنه قوله تعالى: { وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي}[الأعراف:١٤٢].

وتقول العرب وأخلف الله عليك، أي عوضك الله بشيء بعده، وقعدت خلاف فلان، أي بعده.

والخلفة نبت ينبت بعد الهشيم، وخلفة الشجر ثمر يخرج بعد الثمر، وأخلف الطائر نبت له ريش بعد الريش.

والثاني: بمعنى الضد وهو خلاف قدام.

خلفت فلانا ورائي فتخلف عني، أي تأخر، وتأتي متعديه أخلف الرجل بمعنى أهوى بيده إلى خلفه ليأخذ من رحله سيفا أو غيره.

---

[١] الفراهيدي، الخليل بن أحمد(لا يوجد)، العين، تحقيق: مهدي المخزومي_ إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، (ج٤/ص٢٦٥).

ومن هذا الباب الواحد من أخلاف الضرع.

والثالث: التغير[١].

خلف فوه، إذا تغير وأخلف، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: " لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك"

ومنه الخلف في القول، وهو الخلاف في الوعد، وخلف الرجل عن خلق أبيه أي تغير[٢].

وفي الاصطلاح.

عرف الراغب الأصفهاني خلف بالضد فقال: "هي ضد تقدم وسلف، والمتأخر يقال له خلف، والاختلاف والمخالفة أن يأخذ كل واحد طريقا غير طريق الآخر في حاله أو قوله، والخلاف أعم من الضد، لأن كل ضدين مختلفان، وليس كل

---

[١] جعله الزمخشري من المجاز. انظر: الزمخشري، محمود بن عمرو بن أحمد (١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م)، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، (ص٢٦٤).

[٢] انظر: الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، (ج٤/ص٢٦٥)؛ ابن فارس، أحمد بن فارس الرازي (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (ج٢/ص٢١٠)؛ ابن سيده، علي بن إسماعيل(١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م)، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية – بيروت، (ج٥/ص١٩٨)؛ ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد(١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، (ج٢/ص٦٥)؛ الرازي، محمد بن أبي بكر(١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م)، مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، الطبعة الخامسة، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا، (ص٩٥)؛ ابن منظور، محمد بن مكرم (١٤١٤ هـ)، لسان العرب، الطبعة الثالثة، دار صادر – بيروت، (ج٩/ص٨٣).

مختلفين ضدين، ولما كان الاختلاف بين الناس في القول قد يقتضي التنازع استعير ذلك للمنازعة والمجادلة"[١]،

تلاحظ أنه شرع ببيان المعاني التي يحملها اللفظ، واستدل على كل ذلك بآيات من القرآن كما هو منهجه في كتابه، ولم يخرج عن أصولها الثلاثة التي تم ذكرها في باب اللغة.

فالمعنى الذي جاءت به الآية هو خلف الشيء، بمعنى أرجئ الحكم عليهم والقضاء فيهم، وتكون بمعنى وراءه أي تركوا وتأخروا وتخلفوا عن غزوة تبوك، والقول الأول هو الراجح بكلام من نزلت فيه الآيات روى البخاري عن كعب بن مالك[٢].

كما رجح ابن عاشور القول الأول بدليل بناء فعل (خلفوا) للنائب، فليس المراد خلفوا أنفسهم إنما خلفهم أحد، أي جعلهم خلفا، أي لم يقض فيهم.

ب- ضاقت: وردت مادة (ضيق) في القرآن الكريم ثلاثة عشر مرة[٣]، كما ورد لفظ ضيق في لسان العرب على أربع ألفاظ (ق ض ي/ ق ي ض/ ق و ض/ ض ي ق)، تناوله علماء اللغة بأنه يحمل الوسع في ضده، ومكان

---

[١] انظر: الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد (١٤١٢ هـ)، المفردات في غريب القرآن، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الطبعة الأولى، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، (ص٢٩٣)؛ الكفوي، أيوب بن موسى(لا يوجد)، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت، (ص٤٢٦).

[٢] البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، باب حج أبي بكر بالناس في سنة تسع، حديث رقم ٤٣٦٤، (ج٥/ص١٦٧).

[٣] الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الكتب المصرية_ القاهرة، (ص٤٢٤).

ضيق، كما يحمل معنى الغم والحزن قوله تعالى:{وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ}[هود: ١٢]، وقوله تعالى:{وَيَضِيقُ صَدْرِي}[الشعراء: ١٣]، وقوله تعالى:{ضَيِّقاً حَرَجاً}[الأنعام: ١٢٥]، وقوله تعالى:{وَضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ}[التوبة: ٢٥]، وقوله تعالى:{وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ}[التوبة: ١١٨]، وقوله تعالى:{وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ}[النحل:١٢٧]، ويرد بمعنى الفقر والبخل كما قال تعالى:{ وَلا تُضآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَ}[الطلاق:٦]، وتستعمل لضيق الأمر والأوقات، والضيقة منزل للقمر بلزق الثريا مما يلي الدبران[١].

أما في الاصطلاح.

تناوله الراغب الأصفهاني موافق لما ورد في اللغة[٢]، وعرفه الكفوي من الناحية الحسية والمعنوية فهو "التشديد في الأجرام وبالتخفيف في المعاني"[٣]. فجاء الضيق بهذه الآية بالعبارة عن الحزن والغم.

ت- رحبت: استعمل العرب تقاليبها الستة (ح ر ب، ر ح ب، ر ب ح، ح ب ر، ب ر ح، ب ح ر) وهي رحب المكان الواسع يقال فلان رحب الصدر أي

---

[١] انظر: الفراهيدي الخليل بن أحمد، العين، (ج٥/ص١٨٥)؛ ابن دريد، محمد بن الحسن (١٩٨٧م)، جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين – بيروت (ج٢/ص٩١٠)؛ الهروي، محمد بن أحمد(٢٠٠١م)، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي – بيروت، (ج٩/ص١٧٤)؛ الرازي، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، (ج٣/ص٣٨٣)؛ ابن سيده، علي بن إسماعيل، المحكم والمحيط الأعظم، (ج٦/ص٤٨٥)؛ الزمخشري، محمود بن عمرو، أساس البلاغة، (ج١/ص٥٩١).

[٢] الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، (ص٥١٣).

[٣] الكفوي، أيوب بن موسى، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، (ص٥٧٤).

واسع الصدر، وأرض رحبه أي واسعه، ومن المجاز فلان رحب الذراع بهذا الأمر إذا كان مطيقاً له، ورحب الباع والذراع ورحيبهما أي سخيّ. [١].

وفي الاصطلاح.

قال الراغب الأصفهاني: "سعة المكان، واستعير للواسع الجوف فقيل رحب البطن، ومنه قولهم: مرحبا وأهلا، أي وجدت مكانا رحبا."[٢]

وقال الكفوي "الواسع من كل شيء رحب"[٣].

فتلاحظ أنها في اللغة والاصطلاح ترد إلى أصل واحد وهو السعة، وبهذا المعنى وردت في الآية، فيتضح مقدار التطابق بين المعنى اللغوي، والمعنى الشرعي الذي جاء به القرآن.

ث- ظنوا: تناول العرب (ظ ن) فقط، وهو لفظ مشترك، يدل على معنيين مختلفين يقين وشك، وقد يوضع موضع العلم، ويكون بمعنى مظنة الشيء، ويأتي بمعنى الشك، فيقال ظننت الشيء، إذا لم تتيقنه، ومن ذلك الظنة أي التهمة، والعرب تقول ذلك وتعرفه. [٤]

---

[١] انظر: الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، (ج٣/ص٢١٥)؛ ابن دريد، جمهرة اللغة، محمد بن الحسن، (ج١/ص٢٧٦)؛ الجوهري، إسماعيل بن حماد(١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م)، الصحاح تاج اللغة، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الرابعة، دار العلم للملايين – بيروت، (ج١/ص١٣٤)؛ الزمخشري، محمود بن عمرو، أساس البلاغة، (ص٣٤٢).

[٢] الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، (ص٣٤٦).

[٣] الكفوي، أيوب بن موسى، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، (ص٤٦٦).

[٤] الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، (ج٨/ص١٥١)؛ الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة، (ج٦/ص٢١٦)؛ ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، (ج٣/ص٣٨٣).

وأضاف ابن منظور أن الظن لا يأتي بمعنى اليقين إلا إذا كان يقين تدبر، أما العيان فلا يقال له إلا علم،[١] وهو ما نقله ابن السيد البطليوسي عن السيرافي قال: "لا يستعمل الظن بمعنى العلم إلا في الأشياء الغائبة عن مشاهدة الحواس لها"[٢].

أما في الاصطلاح.

قال الراغب الأصفهاني: "اسم لما يحصل عن أمارة، ومتى قويت أدت إلى العلم، ومتى ضعفت جدا لم يتجاوز حد التوهم، ومتى قوي أو تصور القوي استعمل معه (أن) المشددة، و (أن) المخففة منها، ومتى ضعف استعمل أنْ المختصة بالمعدوم من القول والفعل"[٣]

عند تأمل تعريف الراغب يتبين أنه قسم الظن إلى ثلاث أقسام بمعنى اليقين والشك والتهمة، وأشار إلى معرفة معنى الظن بنوع أن الداخلة عليه.

وعرض الكفوي معنى الظن ناقلا عن الزركشي لمعرفة معنى الظن في القرآن ضابطين:

الأول: أنه حيث وجد الظن محمودا مثابا عليه فهو اليقين، وحيث وجد مذموما متوعدا عليه بالعذاب فهو الشك.

والثاني: أن كل ظن يتصل به (أن) المخففة فهو شك نحو: {بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول}

---

[١] انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، (ج١٣/ص٢٧٢).

[٢]ابن السيد البطليوسي، عبد الله بن محمد (١٩٩٦ م)، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، تحقيق: مصطفى السقا – حامد عبد المجيد، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، (ج٢/ص١٤).

[٣]الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، (ص٥٣٩).

وكل ظن يتصل به (أن) المشددة فهو يقين كقوله تعالى: {إني ظننت أني ملاق حسابيه}"[١] والمعنى في ذلك أن المشددة لتأكيد فدخلت في اليقين، والمخففة بخلافها فدخلت في الشك.

مما ذكر يتبن أن خلاصة ظن في اللغة والاصطلاح:

١. أن الظن تستعمل للشك واليقين والكذب.
٢. كما تستعمل ليقين تدبر، لا يقين عيان.
٣. وأن ظن لا تستعمل بمعنى العلم.
٤. وأن كل ظن جاء بعده أنّ المشددة، أو المخففة منها، فالمراد بها اليقين.
٥. وأن كل ظن استعمل بعده أنْ الخفيفة، أو استعمل معه أنْ المختصة بالمعدومين من القول والفعل، وهي الناصبة للأفعال، فالمراد هو الشك.

وبالنسبة للباحثة المسألة تحتاج إلى زيادة تدبر وبحث للوصول إلى صميم اللغة في معنى ظن.

ج- ملجأ: استعمل العرب (ج أ ل، ل ج أ، أ ج ل) و لجأ تأتي باللغة بمعنى اللجأ والملجأ أي المكان يلتجأ إليه، يقال لجأ فلان إلى كذا ملجأ ولجأ، وهو يلجأ ويلتجئ، وألجأنا الأمر إلى كذا، أي اضطرني إليه، يقال: لجأت والتجأت، وألجأت أمري إلى الله أي أسندت.[٢]

---

[١] الكفوي، أيوب بن موسى، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، (ص٥٨٨).

[٢] الفراهيدي الخليل بن أحمد، العين، (ج٨/ص١٥١)؛ الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة، (ج١/ص٧١)؛ ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، (ج٣/ص٣٨٣).

ح- تاب: التوب في اللغة تدل على الرجوع، فيقال تاب من ذنبه، أي رجع عنه يتوب إلى الله توبة ومتابا، فهو تائب، والتوب التوبة، والتوبة هي الندم، والتوبة تأتي بمعنى الاستحياء، فيقال ما طعامك بطعام توبة، أي لا يستحيى منه ولا يحتشم[١].

أما في الاصطلاح.

قال الراغب الأصفهاني: "ترك الذنب على أجمل الوجوه، وهو أبلغ وجوه الاعتذار، ترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كملت شرائط التوبة"[٢].

قال الجرجاني: " الرجوع إلى الله بحل عقدة الإصرار عن القلب، ثم القيام بكل حقوق الرب."[٣]

قال الكفوي: "الندم على الذنب، تقر بأن لا عذر لك في إتيانه، فهي الرجوع عن المعصية إلى الله تعالى"[٤]

خ- التواب: التواب من صفات الله تعالى هو الذي يتوب على عباده[٥].

---

[١]الفراهيدي الخليل بن أحمد، العين، (ج٨/ص١٣٨)؛ الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة، (ج١/ص٩١)؛ ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، (ج١/ص٣٥٧).

[٢]الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، (ص١٦٩).

[٣]الجرجاني، علي بن محمد(١٤٠٣هـ -١٩٨٣م)، التعريفات، تحقيق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية بيروت -لبنان، (ص٧٠).

[٤]الكفوي، أيوب بن موسى، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، (ص٣٠٨).

[٥] الهروي، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، (ج١٤/ص٢٣٦)؛ ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، (ج١/ص٢٣٣).

أما في الاصطلاح:

قال الأصفهاني"(تواب) يستعمل في الله لكثرة قبول التوبة من العباد"[١].

د- الرحيم: اسم مشتق من الرحمة، الرحيم العاطف على خلقه بالرزق[٢]

وفي الاصطلاح: قال الكفوي وهو من صفات الله وهو كثير الرحمة، و رفيق للمؤمنين خاصة يستر عليهم ذنوبهم في العاجل[٣].

المطلب الثاني: ألفاظ تشترك مع لفظ (الضيق) في المفهوم.

القارئ بتدبر لقوله تعالى:{ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[التوبة:١١٧]، يلاحظ ورود لفظ الضيق مرتين في الآية لإنعام النظر بذاك الضيق الذي حل بهم، وبسبب ذلك أحبت الباحثة إفراد لفظ الضيق زيادة من الدراسة، وفيما يلي ذكر الألفاظ التي تشترك مع الضيق في المفهوم.

أولاً: حصر جاء لفظ حصر في اللغة بمعنى الجمع والحبس والمنع، ومستعمل منها (ح ص ر، ص ح ر، ص ر ح، ح ر ص).

حصر بمعنى ضيق عليه وأحاط به، كما أن الحصير يعني الضيق البخيل، والحصير البارية، والحصير الجنب، وتأتي بمعنى المحبس قال عالى:{ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا}[الإسراء:٨].

---

[١]الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، (ص١٦٩)؛ الكفوي، أيوب بن موسى، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، (ص٣٠٨).

[٢] انظر:الفراهيدي الخليل بن أحمد، العين، (ج٣/ص٢٢٤)؛ الهروي، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، (ج٥/ص٣٣)؛)؛ ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر، (ج٢/ص٢١٠)

[٣]الكفوي، أيوب بن موسى، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، (ص٤٦٧).

وتأتي حصر بمعنى العي، والحصور: الذي لا يأتي النساء، كما يقال حصره العدو يحصرونه، إذا ضيقوا عليه وأحاطوا به[١].

وقال الكفوي الحصر هو كل من امتنع من شيء لم يقدر عليه فقد حصر عنه فتلاحظ أن معنى الحصر هو الحبس مع التضييق.

ثانيًا: قلص استخدم العرب لفظ (قلص، صقل، لصق، قصل، لقص)، وتأتي تقاليب قلصه كلها بمعنى انضم وانزوى، فالشيء يقلص قلوصا أي انضم إلى أصله[٢].

عند التأمل في معنى لفظ قلص يظهر أنه يحمل معنى الانكماش.

ومما سبق يتبين تميز لفظ الضيق عن الألفاظ المقاربة له لما يحمل اللفظ من دلالة الهم والحزن والغم، وهو يأتي بضد السعة والرحب الذي أرادته الآية.

فتلاحظ أن من الصور الجمالية في الآية ورود لفظ الضيق، فلفظ الضيق بين كنه نفوسهم، فأتى القرآن بأدق الألفاظ للوفاء بالمعنى وإتمام الصورة في ذهن القارئ، وكما قال دراز ناقلا عن ابن عطية" لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب لفظة أحسن منها لم توجد"[٣].

---

[١]انظر: الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، (ج٥/ص٦٢)؛ الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة، (ج٢/ص٦٣٠)؛ ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، (ج٢/ص٧٢).

[٢]انظر: الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، (ج٣/ص١١٣)؛ الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة، (ج٣/ص١٠٥٣)؛ ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، (ج٥/ص٢١).

[٣]دراز، محمد بن عبد الله(١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م)، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، اعتنى به : أحمد مصطفى، قدم له : عبد العظيم المطعني، دار القلم للنشر والتوزيع، (ص١٤٧).

المبحث الثاني: الدلالة الصرفية والنحوية والبلاغية في الآية.

القرآن الكريم جاء متحديا لأهل الفصاحة والبلاغة، قال الزرقاني " بلاغة القرآن الكريم إلى حد فاق كل بيان وأخرس كل لسان وأسكت كل معارض ومكابر وهدم كل مجادل ومهاتر"[١]، وفيما يلي محاولات لبيان ما تحمله الآية من دلالات صرفية ونحوية وبلاغية.

المطلب الأول: الدلالة الصرفية والنحوية[٢].

أولا: الدلالة الصرفية.

التواب: مشتقّ من تاب يتوب باب نصر فهو مبالغة اسم الفاعل، وزنه فَعّال[٣]، أي أن الله عز وجل مبالغ في قبول التوبة.

ثانيا: الدلالة النحوية.

اللغة العربية خصت كل صيغة باستعمال ومعنى خاص، وفيما يلي نشرع ببيان الصيغ ومعانيها الواردة في قوله تعالى:{وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[التوبة:١١٧]، وعند تأمل هذه الآية تجد أنها ورود فيها عدة أساليب نحوية عزت المعنى وأثارته.

---

[١]الزرقاني، محمد عبد العظيم(لا يوجد)، مناهل العرفان في علوم القرآن، الطبعة الثالثة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، (ج١/ص٢٩٦).

[٢] كما ذكرت بالبحث السابق بعض الأحيان تختلط معاني النحو مع البلاغة، يكون الفصل عسير بينهما.

[٣]انظر: صافي، محمود بن عبد الرحيم (١٤١٨ هـ)، الجدول في إعراب القرآن الكريم، الطبعة الرابعة، دار الرشيد، دمشق – مؤسسة الإيمان، بيروت، (ج١/ص١٠٨).

الأسلوب الأول تقديم الجار والمجرور المتعلق بتاب، على الاسم الموصول {وعلى الثلاثة الذين}، أفاد اختصاص وحصر[١] هؤلاء الثلاثة بالبشارة بالتوبة، ففيها مدح وبشارة لهم أن الله خصهم ونص على توبته عليهم بخطاب خالد ما دامت السماوات والأرض، كما جاء في الإتقان " كاد أهل البيان يطبقون على أن تقديم المعمول يفيد الحصر سواء كان مفعولا أو ظرفا أو مجرورا"[٢].

الأسلوب الثاني خُلفوا فعل ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل، وهذا الأسلوب النحوي يفيد أن هناك من أخلفهم ولم يخلفوا هم أنفسهم.

الأسلوب الثالث في قوله تعالى:{حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ}.

قال الأخفش والكوفيون أن إذا شرطية وجوابها تاب عليهم وثم زائدة، ورد هذا أبو حيان فقال:" دعوى أن (ثم) زائدة وجواب إذا ما بعد ثم بعيد جدا، وغير ثابت من لسان العرب زيادة ثم"[٣]

وقال الزركشي التأويل أحسن من القول بزيادة (ثم)، أي رحمهم ثم تاب عليهم، وحذف المعطوف عليه وإبقاء المعطوف أسلوب معهود وسائغ في اللغة والقرآن الكريم

---

[١]الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن(١٤٢٢هـ - ٢٠٠١ م)، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية- الدار النموذجية، (ص١٣٤).

[٢]السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (ج٣/ص١٧٤).

[٣] أبو حيان، محمد بن يوسف (١٤٢٠ هـ)، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، (ج٥/ص٥٢٠).

أو تكون إذا بعد حتى قد تجردت من الشرط وتبقى لمجرد الوقت فلا تحتاج إلى جواب بل تكون غاية للفعل الذي قبلها، خلفوا إلى هذا الوقت، ثم تاب عليهم وليراجعوا التوبة، فيكون التقدير خلفوا حتى حين وصولهم إلى الضيق [١].

الأسلوب الرابع والخامس لا النافية للجنس والاستثناء بقوله تعالى: {لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّـهِ إِلا إِلَيْـهِ} أولا لا النافية للجنس أفاد الاستغراق والشمول، فهي نفت الجنس، كما تفيد التأكيد لأنها شابهة إنّ، فهي نفي آكد وأقوى.[٢]

ثم جاء استثناء ذلك العام المنفي، {بقوله إلا إليه} الذي أنزل فيه المخاطب منزلة المنكر، لأن المخلفين الثلاثة تعلقت قلوبهم بقبول النبي صلى الله عليه وسلم أعذارهم وأرادوا استغفاره الله لهم، فلا مهرب من الله إلا إليه، فلما علموا ذلك تاب الله عليهم.

وممكن القول أن المخاطبون هنا مؤمنون ويعلمون أن لا ملجأ من الله إلا اليه، إنما جيء بطريقة النفي والإثبات بالقصر، لتقرير هذه الحقيقة للناس جميعا ففيه قوة وتأكيد.

الأسلوب السادس مجيء فعل يتوبوا بصيغة المضارع ليداوموا على التوبة.

الأسلوب السابع الأحرف المشبهة بالفعل، قال تعالى:{إِنَّ اللَّـهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيم}، فجيء بإنّ لتأكيد مضمون الجملة، ولربط الكلام بعضه ببعض، كما

---

[١] انظر: ابن هشام، عبد الله بن يوسف(١٩٨٥م)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق مازن المبارك_ محمد علي، الطبعة السادسة، دار الفكر – دمشق، (ص١٥٩)؛ الزركشي، محمد بن عبد الله(١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، (ج٣/ص١٩٠)؛ عضيمة، محمد عبد الخالق (لا يوجد)، دراسات لأسلوب القرآن الكريم، تصدير: محمود محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، (ج١/ص١٩٢).

[٢] انظر: المبرد، محمد بن يزيد(لا يوجد)، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب. – بيروت، (ج٤/ص٣٥٩).

قال الجرجاني: " واعلم أن من شأن (إن) ، أن تغني غناء (الفاء) العاطفة، وأن تفيد من ربط الجملة بما قبلها، أمرا عجيبا، فأنت ترى الكلام بها مستأنفا، غير مستأنف، مقطوع موصولا معا"[١].

وضمير الفصل أفاد تأكيد اختصاص وقصر أن الله هو التواب الرحيم، كما أن الجملة الاسمية الدالة على ثبوت تلك الصفات لله[٢]، فمجيء كل هذه التأكيدات لبيان وترسيخ مفهوم عظم رحمة الله وسعة توبته على العبيد، حتى يُقبل السامع ولا يقنط من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه، كما قال تعالى:{ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[الزمر:٥٣].

المطلب الثاني: الدلالة البلاغية.

ترسم هذه الآية صورة لموقف مؤلم حصل لثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، صورة تترجمها الألفاظ ببلاغتها.

صور الله عز وجل حالهم وأبرز صدق مشاعرهم فهم لم يتخلفوا عن شك ولا نفاق انظر لأنفاسهم كيف قد اختنقت حتى تكاد لا تخرج من صدورهم، فلما أقبل الصبح تنفسوا البشارة ودبت الحياة في قلوبهم، قال تعالى:{ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ }.

يبدو من النظرة الأولى أن الأرض والنفس كلاهما تغير عن حقيقته، لتنقلنا إلى احساس وجداني عميق، ورؤية قلبية تكشف لنا حال الصادقين الثلاثة.

---

[١] الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، دلائل الإعجاز في علم المعاني، (ص٢٣٨).

[٢] انظر: عباس، فضل حسن(١٤٢٩هـ/٢٠٠٩م)، البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)، الطبعة الثانية عشر، دار النفائس الأردن_ عمان، (ص٩٤).

وتلاحظ كيف أبرز لنا القرآن حالتهم النفسية، بألفاظ كشفت لنا حالهم بأتم وأدق التفاصيل، فجاء القرآن بصورة فنية تجعل القارئ والسامع يستحضر المشهد ويشعر بضيق أنفاسهم.

فقلوب الثلاثة معلقة بالله، وتأخر حكم الله فيهم، أدى إلى حيرة القلوب وتشتتها، فلم تعد الأرض هي الأرض التي عهدوها، على سعتها تضيق وتنقص عليهم، فأشار الله عز وجل إلى عظيم ما أحل بهم بأداة الاستعلاء _على_، وجيء بباء للملابسة وما المصدرية _بما رحبت_، لبيان أنها ضاقت عليهم الأرض حالة كونها ملابسة لرحبها وسعتها لا ضيق فيها.

قال الزمخشري:" وهو مثل للحيرة في أمرهم". [١]

وقال ابن عاشور:" ضاقت عليكم الأرض بما رحبت استعارة تمثيلية تمثيلا لحال من لا يستطيع الخلاص من شدة بسبب اختلال قوة تفكيره، بحال من هو في مكان ضيق من الأرض يريد أن يخرج منه فلا يستطيع تجاوزه ولا الانتقال منه"[٢]، وفي موضع آخر قال:" وذلك التشبيه كناية عن غمهم وتنكر المسلمين لهم "[٣].

فإذا كانت على وجه الحقيقة وهو تعبير من أنفسهم، على حقيقة نفسية شعورية ترتبط بالشخص، كالذي لا يريد أن يلتقي بشخص ما فلا يجد مكان

---

[١]انظر: الزمخشري، محمود بن عمرو (١٤٠٧ هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي – بيروت، (ج٢/ص٢٦٠)؛ أبو حيان، (ج٥/ص٣٩٣)؛ ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد(١٩٨٤ هـ)، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسية للنشر – تونس، (ج١٠/ص١٥٧).

[٢]ابن عاشور، التحرير والتنوير، (ج١٠/ص١٥٧).

[٣]ابن عاشور، التحرير والتنوير، (ج١١/ص٥٣).

يهرب إليه، وتضيق به بالأماكن وتضيق به الأرض، حملها على الكناية والمثل لحيرة الفكر.

أما من يراه من باب التشبيه التمثيلي كابن عاشور، وأن الله عز وجل شبه حال نفوسهم بهذه الصورة الفنية.

وكلاهما كلام معقول وقريب من بعض، ومن المعهود اللغوي، وهو خلاف في زاوية النظر، كما أن الكناية في كثير من الأمور استطيع أن أجريها مجازا، فلذلك قال ابن عاشور ذلك تشبيه الكناية.

ويزداد ضيق الأرض إلى أن تأخذ بخناقهم فتضيق نفوسهم، فالأرض تضيق وتنكمش عليهم من الخارج، والنفوس تضغط عليهم من الداخل، فهم في كرب خانق، كما قال الألوسي:" ضاقت أنفسكم مجاز أي قلوبهم وعبر عنها بذلك مجازا لأن قيام الذوات بها، ومعنى ضيقها غمها وحزنها كأنها لا تسع السرور لضيقها"[(١)]، فالنفوس في الحقيقة لا توصف بالضّيق والاتساع، إنما المراد انعصار القلوب بشدّة الحزن والكرب، وبلوغها منقطع الصبر، فهي استعارة للغم والحزن لأن الغم والحزن يكون في النفس بمنزلة الضيق، فلا يجدون سرورا ولا أنسا بعد مقاطعة المجتمع الإسلامي لهم.

وعبر القرآن بحرف(ثم) الدالة على المهلة والتراخي الزمني، لدلالة على انتظار التوبة، وطول المدة على نفوسهم لما فيها من الشدة والضيق.

وتأمل بلاغة النظم القرآني في قوله تعالى:{ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا} ففي سياق النعم والمن على المؤمنين ابتدأ القول عن الله، ليكون غاية الفضل المن على عبادة، بخلاف سياق الذم والوعيد ابتدأ بالجهة التي عن المذنب، قال

[(١)]الآلوسي، محمود بن عبد الله(١٤١٥ هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية – بيروت، (ج٦/ص٤٠).

تعالى:{ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ}[الصف:٥]، ليكون أشد زجرا وتقريعا للمذنب[١]، فالنعم تكون بفضل من الله ومنه، فأما المعصية فالمتسبب بها العبد.

مركب مشابه.

ولهذا التركيب القرآني تركيب مشابه له، ورد في نفس السورة، قال تعالى:{ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ}[التوبة:٢٥]، إلا أن أسلوب الخطاب تغير، لتغير السياق الذي وردت فيه، فهذه الآية وردت عند ذكر غزوة حنين، وما صدر من المجاهدين في ساحة القتال، وهو اغترارهم في عددهم وعدتهم، واعتمدوا على كثرتهم، فبعد أن انشغلت قلوبهم بغير الله، نزلت هذه الآية بأسلوب الخطاب (عليكم) لأن الخطاب هنا أشد، وصدور الموقف من عدد من الصحابة رضي الله عنهم، فجاء الأسلوب بتوجيه أشد ليرسخ عقيدة عظيمة، وهي التوكل على الله عز وجل، والتوبيخ من العجب بالنفس.

أما ورودها في قصة الثلاثة المخلفين فجاءت بأسلوب الخطاب عن غائب، وسبب ذلك ربما لأنها في سياق المدح و الإنعام عليهم، ولتناول الآية باعتبار حالهم والمراد إلقاء النظر إلى صدقهم وتوبتهم.

وهذا مما تذوقته الباحثة من إلماحات الآية، وهي ترجع إلى نظرت المتدبر، فهو قابل للأخذ والرد.

المطلب الثالث: الدلالة الصوتية.

---

[١]انظر: ابن عطية، عبد الحق بن غالب(١٤٢٢ هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية – بيروت، (ج٣/ص٩٤).

هناك العديد من الظواهر الصوتية التي يمكن أن تلتمسها في الكلمات القرآنية، فلكل حرف دلالة على معنى الكلمة التي يتصدرها، فالدلالة الصوتية تخدم المعنى الكلي للفظ، ومضمونه العام.

وقفت الباحثة على أسرار الدلالة الصوتية للفظ (ض ي ق) ابتدأ اللفظ، واختتم بحرف لا يمر معه النفس، وينقفل مخرجة انقفال تام، يوحي بذلك مدى شدة الضيق التي تحل بالمرء عندما تحيط به الظلمة من كل جانب، فحرف القاف حرف مهجور، وشديد يمنع الصوت أن يجري معه لشدّة لزومه موضعه، كشدة ملازمة الهم للمهموم وقلة انفكاكها عنه، وهو من حروف الاستعلاء الدالة على القوة، وكذلك من حروف القلقلة التي تعرف بشدة الصوت، فتلاحظ تميز هذا الحرف بما يناسب وروده بهذا اللفظ والاختتام به.

أما التاء فهو حرف مهموس، والأحرف المهموسة تحتاج إلى جهد أكثر في نطقها؛ لأن يضعف الاعتماد على الحرف في موضعه فيجري النّفس معه، كما يحتاج المقتر للجهد في تنفس مما يمر عليه من الضيق، فالتاء تحتاج لجهد لذلك ناسب ورودها بلفظ يدل على القوة، كما هو حرف شديد.

وتكرار صوت الراء يدل على قوة الضيق والضنك، وهو حرف قوي لما فيه من تكرار.

لفظ قتر فيه حرفان من الحروف المهجورة، وحرفان من حروف الشدة، فتجمع هذه الأصوات زادة قوة اللفظ في الأسماع، ليتصور لنا الموقف، وليربط في نفس السامع قوة معنى الضيق، ويرسم الشدة التي يختالها المقتر.

المبحث الثالث: الآية في السياق القرآني.

سأتناول في هذا المبحث الآية في السياق القرآني، ومناسبتها بما قبلها وبعدها من الآيات.

المطلب الأول: علاقة الآية بما قبلها وما بعدها.

قال تعالى:{لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ* وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ*يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}[التوبة:١١٧_١١٩].

أولا: مناسبة الآية التي يدور عليها البحث بما قبلها.

قال ابن فارس في معنى الزيغ: "أصل يدل على ميل الشيء"[١]، قال الراغب الأصفهاني: "الزيغ الميل عن الاستقامة"[٢].

فقلوب المقاتلين في غزوة تبوك غير زائغة لا زيغانًا قليلاً ولا كثيرًا؛ وذلك لأن (كاد) من أفعال المقاربة، يفيد المقاربة مع عدم الوقوع [٣]، فهو يفيد المقاربة

---

[١]ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، (ج٣/ص٤٠)؛ انظر: الفراهيدي، العين، (ج٤/ص٤٣٤)؛ ابن منظر، لسان العرب، (ج٨/ص٤٣٢).

[٢]الراغب الأصفهاني، مفردات في غريب القرآن، (ص٢٨٧).

[٣]المالكي، أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي(١٤٢٨هـ – ٢٠٠٨م)، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، تحقيق : عبد الرحمن علي سليمان _أستاذ اللغويات في جامعة الأزهر، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي،(ج١/ص٥١٥).

مـع عدم الوقـوع، أي قربـت قلـوبهم عـن الميـل عـن الجهـاد، فحفظهـا الله أن يدخلها ما يخلّ صلاحها.

واختلفوا في ذلك الذي وقع في قلوبهم.

القول الأول: هم بعضهم عند تلك الشدة العظيمة أن يفارق الرسول_ صلى الله عليه وسلم_، لكنه صبر واحتسب، فلذلك قال تعالى: {ثم تاب عليهم} لما صبروا وثبتوا وندموا على ذلك الأمر اليسير، وهو قول الزجاج.

القول الثاني: كان ذلك لحديث النفس الذي يكون مقدمة العزيمة، فلما نالتهم الشدة وقع ذلك في قلوبهم ومع ذلك تلافوا هذا اليسير خوفا منه أن يكون معصية، فلذلك قال تعالى: {ثم تاب عليهم}، وهو قول ابن عباس[١].

فقلوب المقاتلين مما لاقوه في غزوة تبوك التي امتازت عن غيرها بشدة الحر وقلة المال، فقلوبهم الصالحة من حيث إنّ كلّ الشدة التي حصلت لهم قاربت أن توقعها في الزيغ، فما كان أقلّ من ذلك فلن يؤثّر فيها البتة؛ وذلك لصلابتها في الصلاح.

فعلاقة الآية بما قبلها أن كلا الآيتين تتحدث عن غزوة تبوك، فالآية الأولى ذكر الله حفظ قلوب المجاهدين من الزيغ وتوبته عليهم، والآية الثانية ذكر توبته على تخلف الثلاثة الصالحين عن هذه الغزوة.

ثانيا: مناسبة الآية التي يدور عليها البحث بما بعدها.

أما الآية اللاحقة فهي مرتبطة ارتباط شديد بهذه الآية، فقد دلت على سبب منجاة المخلفين الثلاثة، قال تعالى:{يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} فما نفعهم إلا الصدق، أبعدهم عن منازل المنافقين، فأمر الله المؤمنين بكونهم مع أهل الصدق بعد ذكر قصة الثلاثة الذين نفعهم صدقهم وأزاحهم عن رتبة النفاق.

---

[١] الرازي، مفاتيح الغيب، (ج١٦/ص١٦٣).

المطلب الثاني: التفسير التحليلي للآية.

وردت هذه الآية في ثنايا آيات تتكلم عن غزوة تبوك، وفي هذه الغزوة سطر الصحابة أروع أمثلة البذل والعطاء، وذكر لنا القرآن وفصلت السنة النبوية لنا موقف ثلاثة من الصحابة رضي الله عنه في هذه الغزوة، كلهم من الأنصار سوفوا وتأخروا في خروجهم للجهاد فتخلفوا بدون عذر، اعترفوا بذنبهم وقدموا اعذارهم للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم" أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك"[(١)]، وكذلك قال لصاحبيه، فخلفوا في قبول العذر، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس عن كلامهم، وأمرهم بأن يعتزلوا نساءهم.

فضاقت عليهم الأرض على رحابتها وسعتها عليهم، فلم تعد الأرض كما هي بأعينهم، من شدة الهم والغم والحزن الذي ألم قلوبهم، وقلقهم من غضب الله عليهم، وخوفهم من الخروج من عفو الله ورحمته، إلى الضياع والخسران.

وإنما عظم ذنبهم واستحقوا عليه ذلك لعظم مكانتهم وقربهم من النبي صلى الله عليه وسلم، فطلب منه الشرع بحسب منازلهم من الإيمان وتقدمهم فيه إذ هم أسوة وحجة للمنافقين والطاعنين، إذ كان كعب من أهل العقبة وصاحباه من أهل بدر.

كما أن الغزوة في السنة التاسعة للهجرة فالتوجيه النبوي والتربوي بلغ مرحلته النهائية، لا يسمح فيها التهاون أو التقصير، لذلك جاءت تزكية نفوسهم بمحاسبة شديدة.

---

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، باب حديث كعب بن مالك وقوله تعالى:{وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا}[التوبة:١١٨]، حديث رقم٤٤١٨، (ج٦/ص٣).

فلما ازدادت وشدة المحنة على الثلاثة الصادقين ازدادوا تقربا لله عز وجل، وعلموا واستيقنوا أن لا نجاة إلا بالرجوع إليه والاستغفار منه[١].

فلما ظهرت صدق توبتهم وحسن إنابتهم لله، أنزل الله بشارة توبته عليهم، قال تعالى:{ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[التوبة:١١٨]، فأصبح صدقهم وتوبتهم سيرة تتبع، فقد عرف الزمخشري التوبة النصوح فقال" إن تضيق على التائب الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه، كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه"[٢].

ومما سبق يبادر في الذهن سؤال، كيف بمن يتخلف عن الجهاد رغبة في هزيمة المسلمين؟

وعند تدبر الباحثة لهذا المركب القرآني ظهر لها أن وورود لفظ (التوبة) ومشتقاتها في هذه السورة سبع عشر مرة[٣]، فورود لفظ التوبة في سياق قتال المشركين وكشف صفات المنافقين، يشير إلى أن سفك الدماء وتحديد المنافقين ليس هو المطلوب، إنما الهدف من ذلك بيان أهمية التوبة وترسيخها في القلوب، فهي طريق النجاة للمشركين والمنافقين، فالله عز وجل بين لهم الداء والدواء، فأرشدهم إلى سبيل النجاة بالتوبة والرجوع إليه.

---

[١] قطب، سيد قطب إبراهيم، في ظلال القرآن، (ج٣/ص١٧١٤).

[٢] الزمخشري، محمود بن عمرو، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (ج٢/ص٣٢٠).

[٣] انظر: الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، (ص١٥٦-١٥٨).

الخاتمة:

الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات، الحمد لله كما ينبغي لجلال وجه وعظيم سلطانه، الحمد لله الذي أعانني على كتابة هذا البحث ويسر لي إتمامه، وأسأله سبحانه وتعالى أن يعفو عن خطأي وزللي، وتقصيري وتفريطي، وختامًا أود أن أذكر أهم النتائج التي توصلت عليها على النحو الآتي:

١. **تميز لفظ الضيق عن الألفاظ المقاربة له لما يحمل اللفظ من دلالة الهم والحزن والغم، وهو يأتي بضد السعة والرحب الذي أرادته الآية.**
٢. **أتى القرآن بأدق الألفاظ للوفاء بالمعنى وإتمام الصورة في ذهن القارئ، لو نزعت منه لفظة لن تجد لفظة أحسن منها.**
٣. **ورد لفظ التواب بصيغة المبالغة لدلالة أن الله عز وجل مبالغ في قبول التوبة.**
٤. **تقديم الجار والمجرور أفاد اختصاص وحصر.**
٥. **ورود الفعل خلفوا بصيغة مبني للمجهول أفاد أنهم خلفوا في القضاء بأمرهم.**
٦. **لا ملجأ من الله إلا اليه، جيء بطريقة النفي والإثبات بالقصر، لتقرير هذه الحقيقة للناس جميعا ففيه قوة وتأكيد.**
٧. **وعبر القرآن بحرف(ثم) الدالة على المهلة والتراخي الزمني، لدلالة على انتظار التوبة، وطول المدة على نفوسهم لما فيها من الشدة والضيق.**
٨. **يتغير أسلوب الخطاب بتغير السياق والمقام.**
٩. **ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة.**
١٠. **التزام الصدق من أسباب النجاة والهداية.**

المراجع:

القرآن الكريم.

١. ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد(١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت.

٢. الآلوسي، محمود بن عبد الله(١٤١٥ هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت.

٣. البخاري، محمد بن إسماعيل(١٤٢٢هـ)، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الطبعة الأولى، دار طوق النجاة.

٤. الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الكتب المصرية_ القاهرة.

٥. الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن(١٤٢٢هـ - ٢٠٠١ م)، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية- الدار النموذجية.

٦. الجرجاني، علي بن محمد(١٤٠٣هـ -١٩٨٣م)، التعريفات، تحقيق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية بيروت -لبنان.

٧. الجوهري، إسماعيل بن حماد(١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م)، الصحاح تاج اللغة، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الرابعة، دار العلم للملايين - بيروت.

٨. أبو حيان، محمد بن يوسف (١٤٢٠ هـ)، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت.

٩. الداني، عثمان بن سعيد(١٤١٤هـ- ١٩٩٤م)، البيان في عدّ آي القرآن، تحقيق: غانم قدوري الحمد، الطبعة الأولى، مركز المخطوطات والتراث – الكويت.

١٠. دراز، محمد بن عبد الله(١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م)، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، اعتنى به : أحمد مصطفى، قدم له : عبد العظيم المطعني، دار القلم للنشر والتوزيع.

١١. ابن دريد، محمد بن الحسن (١٩٨٧م)، جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين – بيروت.

١٢. الرازي، محمد بن أبي بكر(١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م)، مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، الطبعة الخامسة، المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا.

١٣. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد (١٤١٢ هـ)، المفردات في غريب القرآن، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الطبعة الأولى، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت.

١٤. الزرقاني، محمد عبد العظيم(لا يوجد)، مناهل العرفان في علوم القرآن، الطبعة الثالثة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

١٥. الزركشي، محمد بن عبد الله(١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.

١٦. الزمخشري، محمود بن عمرو(١٤٠٧ هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي – بيروت.

١٧. الزمخشري، محمود بن عمرو بن أحمد (١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م)، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

١٨. ابن السيد البطليوسي، عبد الله بن محمد (١٩٩٦ م)، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، تحقيق: مصطفى السقا – حامد عبد المجيد، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة.

١٩. ابن سيده، علي بن إسماعيل(١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م)، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية – بيروت.

٢٠. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢١. صافي، محمود بن عبد الرحيم (١٤١٨ هـ)، الجدول في إعراب القرآن الكريم، الطبعة الرابعة، دار الرشيد، دمشق – مؤسسة الإيمان، بيروت.

٢٢. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد(١٩٨٤ هـ)، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسية للنشر – تونس.

٢٣. عباس، فضل حسن(١٤٢٩هـ/٢٠٠٩م)، البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)، الطبعة الثانية عشر، دار النفائس الأردن_ عمان.

٢٤. عضيمة، محمد عبد الخالق (لا يوجد)، دراسات لأسلوب القرآن الكريم، تصدير: محمود محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة.

٢٥. ابن عطية، عبد الحق بن غالب(١٤٢٢ هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية – بيروت.

٢٦. ابن فارس، أحمد بن فارس الرازي (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر.

٢٧. الفراهيدي، الخليل بن أحمد(لا يوجد)، العين، تحقيق: مهدي المخزومي_ إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

٢٨. قطب، سيد قطب إبراهيم (١٤١٢ هـ)، في ظلال القرآن، الطبعة السابعة عشر، دار الشروق – بيروت.

٢٩. الكفوي، أيوب بن موسى(لا يوجد)، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت.

٣٠. المالكي، أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي(١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨م)، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، تحقيق : عبد الرحمن علي سليمان _أستاذ اللغويات في جامعة الأزهر، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي.

٣١. المبرد، محمد بن يزيد(لا يوجد)، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب– بيروت.

٣٢. ابن منظور، محمد بن مكرم (١٤١٤ هـ)، لسان العرب، الطبعة الثالثة، دار صادر – بيروت.

٣٣. الهروي، محمد بن أحمد(٢٠٠١م)، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٣٤. ابن هشام، عبد الله بن يوسف(١٩٨٥م)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق مازن المبارك_ محمد علي، الطبعة السادسة، دار الفكر – دمشق.